



تشرين الاول ١٩٣٣

السنة الحادية والثلاثون

## الحياة في بيروت

على عهد الصليبيين

بقلم الاب لانس اليسوعي

١

الثالث عشر من شهر ايار سنة ١١١٠ ، تقدم بقديون الاول ، اخو  
 غودفرويد دي بويون ، وثاني ملك لاتيني على اورشليم ، فانزع من  
 ايدي فاطمي مصر مدينة بيروت - المدعوة اذ ذاك « باروت »  
 (Baruth) - بعد حصار دام ثلاثة اشهر . وكانت غابة الصنوبر او « صنوبر  
 باروت » ، كما يقول المؤرخ غليم الصوري ، قد وفرت الخشب لتجهيز آلات  
 الحرب المستعملة في الحصار . - واذا فان الغابة اتدمت من عصر الامير  
 فخر الدين !

وان تكن بيروت قد قاومت مدة ثلاثة اشهر ، فان ذلك بفضل السفن

المصرية التي كانت تأتيها بالوّن والذخائر . على ان الفائز الجنوية لم تلبث ان وصلت امام بيروت . وكان عددها اربعين سفينة ، فضيقت الحصار ، ومكنت بقنوين من الاسراع في المارك برأً وبحراً . وكانت الحركة الفاصلة شديدة المرل ، كما يُستفرج من رواية المؤرخ القلاسي ، القائل ان الناس لا يذكرّون ان الفرنجة شهدوا معركة تشبهها شدةً وحرّلاً ، حتى انهم قبل نهاية النهار دخلوا المدينة بمجدّ السيف . وكان من ضحايا تلك الموقعة قائد العاهة المصرية .

وبعد مدة لا تبلغ القرنين أُجبرت «باروت الصليبيين» على ان تُسلم صلحاً للمالك مصر ، سادة البلاد السورية آنئذ . وكان ذلك في ٢١ تموز ١٢٩١ . وهو صلح لم يقيم الفاتح بمراعاة شروطه ، بل غدر بمن دخل في الامان اشام غدر . وهاك ما يقوله في تفصيل ذلك صالح بن يحيى ، مؤرخ بيروت . وسنعود كثيراً الى تربيخه في هذا البحث . قال ذاكرًا سنجر احد امراء المالك القادم الى بيروت ، واستقبال الحاكم الفرنجي له ، وذلك بعد الصلح والامان :

« فلما وصل سنجر الشجاعي الى بيروت تلقاه صاحبها وحياته احسن ملتقى . وتزل في القلعة وامرهم ان ينقلوا اولادهم وحرهم وانتالمهم الى القلعة ففعلوا وظنوا انه يفعل ذلك شفقةً عليهم . فلما صاروا في القلعة قبض على الرجال وتقدم والقاهم في الحندق وذلك في نهار الاحد الثالث والعشرين من رجب سنة تسعين وسبائة (١٢٩١) . ثم شرع سنجر الشجاعي في هدم سور بيروت وقلعتها وكانت محكمة البناء . ثم جهز اهلها الى دمشق وانفذهم منها الى مصر باجمهم فهلك منهم المشايخ والمجانز والنساء . ولما وصلوا الى مصر اطلقهم السلطان وقال : اماني باقر عليكم . وخيرهم بين العود الى بيروت او التوجّه الى قبرس باجمهم . »<sup>(١)</sup> وكانت قبرس اذ ذلك تؤلف مملكة اللوزينانيين ، فيجتمع فيها من تبقى من رجال الصليبيين .

وهكذا اضمحلت ، بعد ان ازدهرت مدة ١٧٠ سنة ، «إمارة باروت» ، الدرة الثالية في تاج اورشليم اللاتيني . وقد كانت مدينةً فرنجية اوقرت فيها

(١) صالح بن يحيى : تاريخ بيروت (طبعة شبخر ١٨٩٨) ص ٤٣-٤٤

حياة اوربة وتقاليدها ، مدينة كانت تجمع الشرب المختلفة ، على انها ظلت فرنسية بلنتها ، وعاداتها ، ومؤسساتها ، كما انها ظلت فرنسية بالاسر التي حكمتها . وهاك اسما هذه الاسر المعروفة « بادة باروت » *علا Sires* (*Baruth* : فهناك دي *جين* (*de Guines*) ، و *بريسبار* (*Brisebarre*) ، وموقفور (*Montford*) وكأها قرية او مصاهرة لاشهر الاسر الفرنسية من ذوي الاقطاع في الشرق الادنى كآل *لوزينيان* (*Lusignan*) ، ومونتكو (*Montaigu*) ، ومونبليار (*Montbéliard*) ، و *دامبير* (*Dampierre*) ، ودي لاروش (*de la Roche*) . وكانت اللغة المنقوشة على نقودهم فرنسية او لاتينية . وقد اشترك احد افراد هذه الاسر بتصنيف قانون المحكمة اللاتينية المعروف « بقواعد اورشليم » *« Les Assises de Jérusalem »* واكثر الصليبيين الذين دخلوها او لا كانوا ممن راققوا الملك الفاتح في حروبه ، على مثال *دي جين* (*Foulques de Guines*) امير باروت الاول ، وعلى مثال *بقدوين* استقنها اللاتيني الاول ، واصلها من كونتية *بولونية* . اما سائر الامراء والصليبيين فكانوا من المقاطعات الواقعة على الحدود بين فرنسا وبلجيكا . واذا فهمي مدينة فرنسية خالصة تلك التي ازدهرت ، على مدة نحو قرنين ، في هذه النقطة من فنيقية ، وفي ملحقاتها من جبل *لبنان* . وبمبني اليوم ان اجتمد في تبيان ما امتازت به من شخصية وطرافة ، مذكراً الناس بحياة باروت الفرنجية وعاداتها .

\*\*\*

ولنبداً بذكر حدود تلك الامارة . كان يحدها من جهة الشمال نهر الكلب . ومن جهة الجنوب نهر الدامور . اما في الشرق فانها كانت تتصل بقسم لبنان . وكانت امارة *جبله* (*Giblei*) ، اي *جبل* ، المتصلة بكونتية *طرابلس* تتصل بها في الشمال . وفي الجنوب كانت اراضيها متصلة باراضي *بارونية* *ساجيت* او *ساييت* (*Sagette ou Sayette*) وهي صيدا الحالية . يفصل بين المنطقتين نهر الدامور ، كما قدمنا ، وهو اسم ثمة الفرنجية ثم حرقوه على طريقة عامية

معرفة في التحريف اللغوي فولدوا منه اسم «*flumen amoris*» اي «نهر الحب» .

اما في الجبل فكانت مناطق قضاء المتق وقضاء الشرف الشمالي تخضع لامير بارت. وكان سكان تلك المناطق من المسلمين المنشقين ، تابعي الشيع ذات النظام السري . وقد كانوا يعيشون في حرية قروضية ، مشتمين باستقلال يكاد يكون تاجراً ، حتى ان السلاطين والخلفاء لم يتوصلوا يوماً الى اخضاعهم . يشهد بذلك انهم ، بعد انصراف الصليبيين ، اجبروا ملوك الاسلام على ان يسيروا عليهم جيشاً بلغ خمسين الف مقاتل .

اما على عهد الصليبيين فان دهاء السياسة الفرنجية عمل على اقرار هذه الشرب السريمة الهياج ، فوطد الامن في مناطق الجبل ، تركاً لنا عبرة تُعتبر ومثلاً يجب ان يُقتدى به . وما ذلك الا لان اولئك السكان شعروا بقوة الفرنجة الفاتحة<sup>(١)</sup> مقرونة بالاستقامة . كان الدروز والمثولة يحترمون الصليبيين لانهم كانوا يرونهم شجعاناً وامناً لا يخلفون الوعد ولا ينكثون بالعهد . على ان هذا الاحترام لم يمنع سكان الجبل ، بعض الاحيان ، من التلاعب وخداع الصليبيين ، شأنهم مع سلاطين دمشق والقاهرة ، قبل ذلك العهد . ولا يخفى ان الخداع سلاح الضيف ومرجع سياسته ايضاً . ولكن الصليبيين كانوا واقنين على هذه الاساليب ، فكانوا يقعون تلك الحركات بالشدة الصارمة احياناً ، وينضون عنها الطرف احياناً اخرى . ومها يكن من امر فان لنا بقول الرحالة المسلم ابن جبير الاندلسي ، وهو من معاصري هذه الحوادث ، شهادة على حسن سياسة الصليبيين وتساهلهم مع مسلمي سورية قال :

« ورحلنا من تبين دمرها الله<sup>(٢)</sup> سحر يوم الاثنين وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة سكانها كلها مسلمون ، وهم مع الافرنج على حالة ترفيه ، نهرذ باقه من الفتنة . . . وكل ما بايدي الافرنج من المدن بساحل

(١) اطلب تأييد شجاعة الفرنجة في أسامة ابن منبج ذ كتاب الاخبار ، ص ١٠١٢٧٤٨

(٢) لاحاد يد الفرنجة . وكذلك دعاؤه على جميع مدن الصليبيين .

الثام على هذه السبيل رساتيةها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع . وقد أشربت الفتنة قلوب اكثرهم لما يُبصرون عليه اخوانهم من اهل رساتيق المسلمين وعلمهم لانهم على ضد احوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين ان يشتكي الصنف الاسلامي جوراً صنفه المالك له ويمجد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس ببدله .<sup>(١)</sup>

عندما دخل الصليبيون بيروت كان فيها عدد لا يُستهان به من المسيحيين . وكانوا باكثريتهم من الملكيين واليعاقبة . ثم لحقهم عدد من الموارنة . ولم يلبث هؤلاء المسيحيون ، ولاسيا اليعاقبة والموارنة ، ان اتحدوا بالقادمين من اوربة ، وسرعان ما امتزجوا بهم وراحوا يزبدون عدد الاسر الفرنجية . وكان منهم اكثر الاطباء والصيدالة في الجيوش والمسكرات الصليبية . وكذلك في الدوائر الادارية كانت اعمال الترجمة جميعها بيدهم . حتى أنفوا تلك الفئة الفرنجية - السورية من الموظفين التي اعجبت ابن جبير بترتيبها وحسن معاملتها . اما المسلمون ففقدوا طبعاً اهميتهم السابقة واضطروا الى قبول الشروط التي كانوا قد اجبروا المسيحيين على قبولها في ما مضى . على انها كانت اخف وطأة من شروط الفتح العربي بكثير . من ذلك ان شهادة المسلم وشهادة اليهودي كانتا مقبولتين في المحكمة حتى لو شهدا على الفرنجي . وهو تاهل لم تطلعا على مثله الشريعة القرآنية .

على ان كثيراً من المسلمين فضاوا المهاجرة من بيروت . حتى اصبح عددهم في المدينة ضئيلاً جداً ، ولم يكن لهم جامع عندما دخلها المماليك<sup>(٢)</sup> .

اي اتساع واية اهمية كتبت لبيروت في ارائل القرن الثاني عشر ؟ سؤال يصعب الجواب عنه بدقة وتفصيل . فانه منذ الزلزال الشديد الذي حصل سنة ٥٥٥ ودمر جامعة بيروت الحقوقية الشهيرة<sup>(٣)</sup> ، واهلك ٣٠,٠٠٠ من

(١) رحلة ابن جبير (طبعة de Goeje) ص ٢٠١-٢٠٢

(٢) صالح بن يحيى : التاريخ المذكور ، ص ٥٨

(٣) اطلب محاضرتنا في « الحياة الجامية في بيروت على عهد الرومان والبيزنطيين » في

« مجلة العالم المصري » ( ايلول ١٩٢١ ) ، ( Revue du Monde Egyptien (Sept. 1921) )

البيروتيين ، لا نرى ما يشير الى ان المدينة عادت الى ازدهارها السابق . فانها على عهد العرب كانت خاملة الذكر . وان ذكرها الوليد الثاني ، الخليفة الاموي الشاعر ، فانما يذكرها ليشيد بذكر خمرها وهو بالحقيقة خمر لبنان الذهبي . ثم ، اذا استثنينا الامام الازداعي ومكحولاً ، لا نرى ذكراً لاحد من مشاهير مسلمي بيروت في كتب مؤرخي العرب لذلك العهد . اما من حيث التجارة فان عكا وصور وطرابلس كانت قد نازعتها الاسبقية وفازت بها حتى انها كادت تحتكر تصدير حاصلات دمشق وما اليها من مدن الداخلية . على ان بيروت كانت مدينة محصنة قوية الاسوار . يدل على ذلك ما ذكرناه عن حصار بقديون الاول لما من طول المدّة وشدة العراك . مما يفرض ضخامة الاسوار التي زادها الصليبيون قوة ومناعة ايضاً ، فجعلوا من المدينة « مركز حرب حقيقياً حتى أصبحت اقوى مدن الساحل وانضلتها واحسبها ازدهاراً . » هذا بشهادة المؤرخين المسلمين<sup>(١)</sup> .

وقد نشر الكونت دومنيل دو بوسون (Comte du Mesnil du Buisson) في مجلة « سيريا »<sup>(٢)</sup> بحثاً دقيقاً نفيساً في اسوار بيروت القديمة . وكان غليوم ري (G. Rey) قد خصّ ، منذ السنة ١٨٧١ ، درساً مهماً « بانثار الصليبيين الحربية في سورية وجزيرة قبرص » . ولا أتردّد هنا في الاقرار بقلّة صلاحيتي لاخوض في مثل هذه الموضوعات . على انني اودّ ان اضيف الى الموضوع بعض وثائق ، وان اعيد النظر في بعض نصوص اعتقد انها لم تُدرس الدرس الكافي :

يفرض ري في كتابه « مستعمرات الفرنجة في سورية »<sup>(٣)</sup> « لباروت الصليبيين » مساحة ٨٥٠ متراً طولاً في نحو ٦٠٠ متر عرضاً . ثم يأتي دومنيل فيقتص هذه المساحة الى نحو نصفها . وهي مساحة قد توافق ، في ما اظن ، بيروت المماليك او بيروت فخر الدين والجزّار — ولم يكن فيها اذ ذلك الا

(١) اطلب مجموعة مؤرخي الملبين 1, 692 *Historiens Orientaux des Croisades*

(٢) *Syria*, II, 235 etc.

(٣) G. Rey, *Colonies franques de Syrie*, p. 321

سنة آلاف ساكن - لا بيروت الصليبيين . فان هذه كانت اوسع واكبر ، كما يستخرج من قول الرحالة البلجيكي غيلبير دي لانوى (Ghilbert de Lannoy) اذ زارها في القرن الخامس عشر فقال : « كانت ، في ما سبق ، على عهد الصليبيين ، مدينة كبيرة مقلدة » . ثم ان ما كان يحمل اسوار بيروت فخر الدين والجزائر عرضة لا لمرمى المدافع فحسب ، بل هدفًا للجبائين ، هو وجود الاكيتين المرتفعتين عن المدينة من خارج تلك الاسوار . وما الاكمة التي ترتفع عليها السراي الكبرى اليوم - وعلوها ١٢ مترًا عن سطح البحر - والاكمة الشرقية التي كانت فيها جبانة المسلمين القديمة وراء السراي الصغرى . اما ان يكون الصليبيون بلغ بهم الاهمال وعدم التبصر الى ان ينزوا قلعتهم الضخمة ، التي طالما اعجب بها المسلمون ، عند اقدام هاتين الاكيتين ، فهو ما لا يمكنني التلبيح به ، الا اذا اطلمت على برهان قاطع .

ان الفرنجة كانوا ، مع الرومان ، اوفر من سمر بارض سورية جلدًا على البناء . ولا شك ان بقاءهم مدة قرنين في هذه البلاد ، على ذاك البعد الشاسع عن موطنهم ، مدين لشجاعتهم اولًا ، وكذلك لمقدرة مهندسيهم ودهاء بناتهم . نتحقت ذلك ايضًا اذا اعتبرنا عصرهم المختلف عن عصرنا في ما خسر العادات الحربية ، اذ كانت فيه الاهمية الكبرى للدفاع اكثر منها للهجوم . وان عظمة اساليب التحصين البادية في قلاعهم واسوارهم آتت التأثير الشديد في المسلمين المتحصنين عليهم حتى ان هؤلاء لم يروا طريقة افضل ولا اسلوبًا اوفق ، لكي ينعوا اعداءهم من العودة ، من ان يخربوا الاسوار ويهدموا الحصون التي كان قد انشأها الصليبيون على الساحل . على ان هذا المدم ، لحسن الحظ ، لم يبلغ مدهاء في جميع الانحاء . وليس من السهل ان يخرب الانسان ، كما يخرب قصرًا من ورق اللب ، ابراجًا من الحجر الصلب المتماثل البناء . تبلغ جدرانها الثلاثة والاربعة امتار سماكة . وكان من مقول اسوار الصليبيين ، في العصور المتأخرة ، ان دهاء يونانرت حبط لدى آثارها الباقية حول مدينة عكا ، مما لم تقوَ على التأثير فيه اعمال الحفر ولا كرات المدافع .

وكان من اول اهتمام اسراء الصليبيين ، في المدن البحرية ، ان ينزوا قلعة

حصينة يؤمنونها بكل ما اوتوا من مهارة في البناء الحربي فتهيئهم اشد المهجات حتى اذا تم لهم ذلك كانت مناعة اسوار المدن ثنوية في حين نظرهم . وقد شهد التاريخ على ان اكثر حصونهم في سورية قاومت كل المهجات . ولم يكن رجالها يسلّمون في الغالب او يتركون الموقع الا لنفاد المؤونة والذخيرة . . . . .  
وكانوا يفضلون ل بناء حصونهم البحرية رأساً متقدماً ، او مرتفعاً صخرياً ، او بصخرة في وسط البحر كما في صور ، وصيدا ، وعتليت . واذا لم يوقفوا الى ذلك كانوا يتخبون ، في زاوية المرقع ، اكمة تبصل بالبرية . حتى اذا سقطت المدينة لجأت حاميتها الى القلعة فحاصرت وامكها ان تتناول الذخائر والمؤن من الخارج . ولنا الامثلة على هذا النوع من الحصون في اورشليم ، وجيبيل ، واللاذقية . ولم ز انوم بنوا حصونهم مرة واحدة في ارض منخفضة فأ جاورها .

اما في بيروت فنرجح ان قرب الميناء دفعهم الى تأسيس قلعتهم على مرتفع الجبانة القديمة ، مفضلين هذا الموقع على اكمة السراي الكبرى . وقد ذكر هذه القاعة ويلبراند دولدنبروغ (Willbrand d'Oldenbourg) سنة ١٢١٢ فقال انها من جهة يحفظها البحر ، ومن الجهة الاخرى تُشرف على هوة عيقة *alto* « *rupis precipicio* . اما هذه « الهوة » فهي دون شك ما يراه الناظر من ذلك المرتفع المشرف رأساً وعمودياً على الميناء . ولا سبيل الى تخيل مرتفع غير هذا يوافق « هوة » الكاتب ، في جهة القلعة ، وهي قائمة في الزاوية الشمالية - الشرقية من مركز المدينة .

اما السور الذي جدد بنائه فخر الدين ، ثم اتقه الجزائر سنة ١٧٧٣ في بضعة اشهر ، فكان يمر في اسفل اكمة السراي الكبرى . وكانت آثاره لا تزال ظاهرة لثلاثين سنة خلت . وقد كان للجزائر ان يكتفي به ، اذ لم يكن لديه من المعدات ولا من الوقت ما يسمح له ببناء افضل منه ، ولم يكن يرمي الى ابد من مقاومة امراء لبنان . وليس عندهم من المدافع ما يهدمون به سوره . اما مهندسو الفرنجة فكانت غايتهم ابد من هذه . وكانوا يعرفون « ان طرق التحصين لا تمكن من الدفاع عن المناطق الواسعة الا اذا قعدت قسماً من

مناعتها. «<sup>١</sup> ولهذا سواه أكانوا في اوروبا ام في الشرق ، فانهم لم يظهرورا قط ميلهم الى الاسوار البعيدة الفسيحة . وعليه فان .ساحة «باروت الصليبيين» تظل ضئيلة ، وان ادخلنا فيها — كما ارى ضرورياً — الالكة القوية ومرتفع الجبانة الشرقي.

وكان من فضل مناعة القلعة وانحصار نطاقها ، انه لما هجم المان فريدريك الثاني على بيروت سنة ١٢٣٢ ، فدخلوا المدينة فجأة ، جأت الحامية الى القصر الذي تبنته ملاحم القبرصيين (*Les Gestes des Chiprois*) . بان «من اجل قصور العالم» وبدأ الحصار . فارتقى الالمان المحاصرون المرتفع المدعو شوُفر (Chaufor) فاشرفوا على القلعة واخذوا يرمونها بكلاهم . اما شوُفر هذا فيجعله ري مكان السراي الكبرى . ويقول دومنيل بل يجب ان يكون وراء السراي الصغرى . أما انا فاظن ان الاسم شوُفر تحريف «الاشرفية» وأرى ان المحاصرين أخذوا يرمون القلعة من هذه الالكة . وهو امر ممكن اذ أن فن الرواية بالمنجنيق في ذلك العصر كان من التقدم بحيث انه كان يستخدم الادوات القوية ، «قدرني الى مسافة بعيدة ، على خطر شلجمي ، كلاً من الحجارة<sup>٢</sup> يبلغ وزن الواحدة منها من ١٠٠ الى ١٥٠ كيلوغراماً.» (ري)

(١) اطاب ١٨٥ *Rey, Architecture militaire*,

(٢) اطاب امامة ، ص ٨٢

(للبحث صلة)

